وثائق بيع كتب خزائن المخطوطات وأهميتها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية

دراسة لوثيقة بيع مخطوطات الخزانة البكرية بتوات سنة 1300هـ/1883م

أ/عبد الله بابا/ جامعة أدرار/ الجزائر

Babaabd99@yahoo.com

الملخص:

تحتفظ الخزائن التواتية بالعديد من الوثائق الهامة كعقود بيع الكتب أو تحبيسها أو إقراضها، والتي يمكن استثمارها في وضع دراسات أكاديمية، نستنتج من خلالها مؤشرات تاريخية واقتصادية واجتماعية، والوثيقة التي بين أيدينا اليوم –وثيقة بيع كتب الخزانة البكرية بتوات– هي واحدة من الوثائق التي من خلالها يمكن أن نسلط الضوء على خزائن المخطوطات بتوات من حيث موضوع المخطوط وسعره، وانتقال ملكيته، وما هذه الوثيقة الخاصة بالخزانة البكرية إلا دليل واضح عمّا واجهتهُ الخزائن داخل الزاويا من صعوبات وتحديات، في ظل تراجع مواردها المادية، حيث أصبحت المخطوطات ملاذاً آمنا يمكن استغلالها وقت الحاجة، لدفع الديون المترتبة على عاتق شيخ الزاوية نتيجة الأعباء العلمية والاجتماعية.

Résumé:

les armoires de Touat conserve de nombreux documents importants tels que les contrats librairie ou Tahbis ou de prêts, qui peuvent être investis dans le développement des études universitaires, nous concluons à partir de laquelle les indicateurs scientifiques, historiques et économiques, sociaux,

et le document que nous avons aujourd'hui, "le document de vente des œuvres de l'armoire du Zaouïa de Sid El'Bekri à Touat " est l'un des documents qui pourraient faire la lumière sur les armoires manuscrits à Touat en termes de l'objet du manuscrit et son prix, et le transfert de propriété, et ce document particulier de l'armoire du Zaouïa de Sid El'Bekri seule preuve claire de ce que la confronter ces armoires à l'intérieur des Zaouïas de difficultés et de défis, compte tenu de la diminution des ressources matérielles, où les manuscrits sont devenus un refuge peut être exploitée en cas de besoin, pour payer des dettes repose le Sheikh la Zaouïa en raison des charges scientifiques et sociales.

مقدمة:

تتضمن عقود البيع المخطوطة التي حفظتها لنا خزائن المخطوطات معلومات هامة وأصلية، يمكن استثمارها في وضع دراسات لتتبع أثر المخطوطات بها، وذلك لما ترصده لنا هذه العقود من معلومات علمية واقتصادية واجتماعية تشكل مصدراً صافيا يستمد منه الباحثون والمختصون حقائق معبّرة وموضوعية، يمكن الاعتماد عليها في دراسات مختلفة، لتفسير بعض الظواهر وكشف جوانب مهمة في تراثنا المخطوط.

ومن الخزائن التي حفظت لنا مثل هذه الوثائق الخزانة البكرية بتوات، إذ تعد من أقدم الخزائن بالمنطقة احتضاناً للمخطوط تأليفا ونسخاً منذ تأسيسها سنة 809هـ/1406م. ويحفظ لنا عقد بيع جزء من كتب خزانة الزاوية البكرية[1] المحرر

بتاريخ جمادى الأولى 1300هـ/1883م، أسماء الكتب المخطوطة التي بيعت من طرف السيدة عائشة بنت محمد زوجة شيخ الزاوية المتوفى الحسن بن سعيد، لتسديد ديون مترتبة عليه، والأطراف المستفيدة من الكتب.

ويأخذ هذا الموضوع قيمته وأهميته من خلال الجوانب التي يمكن استنباطها من هذه الوثيقة، التي تحمل معلوماتٍ بِكراً، تُلقي الضوء على جوانب هامة تتعلق بأسعار المخطوطات، وموضوعاتها، والحالة المادية لأرباب الخزائن، وانتقال ملكية المخطوط، ومكونات المخطوط وحالته. وعليه تحاول هذه المداخلة استجلاء بعض الحقائق التي لا زالت مجهولة في مجال الكتب المخطوطة. ولتوضيح أبعاد البحث أكثر يمكن طرح الأسئلة الآتية: ما هي موضوعات الكتب التي بيعت؟ وما هو ثمنها؟ ما المستوى العلمي لكل من البائع والمشتري؟ ما هي الظروف التي دفعت بمالكها إلى بيعها؟ وهل هناك علاقة بين بيع الكتب وتراجع موارد الزاوية المذكورة؟ وما مصير الخزانة بعد بيع جُل مخطوطاتها؟.

تأسيس الخزانة البكرية:

تعتبر الخزانة البكرية من أهم الخزائن احتضاناً للمخطوط تأليفا ونسخاً، حيث يعود تأسيسها إلى الشيخ ميمون بن عمرو(809هـ/1406م)، وفي عهد الشيخ سيد البكري بن عبد الكريم[2] (ت1133هـ/1721م) بلغ عدد مخطوطاتها ما يقارب 3600 مخطوط، وجاءت وصيته بشأنها حسبما جاء في الكواكب البرية "...وكل الكتب حبس مبتل على الأولاد والأحفاد من الذكور حتى يرث الله الأرض، لكل الانتفاع بمكانهم، لا يُمنع منها منتفِع ولا يُمَكَّنُ مبتدِع..."[3] ، وقال صاحب القول البسيط[4] في وصفه للخزانة البكرية "...وعندهم خزائن كتب تكررت فيها الحطاطب

والقواميس والتفاسير..." ، وكانت كتب الخزانة كلها بدار سيد البكري ثم في كفالة ابنه القاضي عبد الكريم ثم عند حفيده القاضي عبد الحق بن عبد الكريم، وفي سنة 1233هـ/1818م اتفق حفدة الشيخ سيد البكري على تقسيمها[5]، وذلك عندما طالب الحسن بن سعيد البكري بأحقيته العلمية في الإشراف على خزانة جده سيد البكري، وهو آنذاك مقيم بالزاوية وليس بتمنطيط، وكان شرط المحبس الانتفاع بالكتب في مكانها، لكن آل الأمر في النهاية بين حفدة الشيخ سيد البكري إلى أنْ يحفظ كل فرع ما نابَهُ منها[6]. فكانت في تمنطيط خزانة الشيخ سيد أحمد ديدي، وخزانة أولاد القاضي، وخزانة محمد الصالح، والخزانة البكرية بزاوية سيد البكري.

يغلب على هذه المخطوطات الطابع الديني من فقه وتفسير وحديث ونحو، بالإضافة إلى التصوف والتاريخ والتراجم والسير وعلم الفلك والرياضيات، ومن نفائس كتب الخزانة البكرية المصحف الكريم[7] المنسوخ من مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان بتاريخ 27 محرم727هـ/23 ديسمبر 1326م، كتبه شيخ الشيوخ بالديار الأندلسية أبو العباس سيد أحمد علي بن أحمد العبدري (ابن خليفة)[8]. ومن أشهر العلماء البكريين الذين ساهموا في إثراء خزانة المخطوطات البكرية تأليفا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ عبد الكريم بن أمحمد والقاضي عبد الكريم بن سيد البكري وابنه القاضي عبد الحق والشيخ الحسن بن سعيد البكري والشيخ علي بن عبد القادر بن البكري والشيخ محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق.

وصف الوثيقة:

جاءت وثيقة بيع كتب الخزانة في صفحة واحدة، مسطرتها تتكون من 25 سطراً، وفي كل سطر 18 كلمة في المتوسط، خطها مغربي رقيق. وقد عثرت على هذه

النسخة بيد الشيخ الحاج عبد الله بكراوي –شيخ الزاوية البكرية– فقمت بأخذ صورة لها أثناء إنجاز بحث حول الزاوية.

وجاء في مقدمة الوثيقة تمهيد تضمّن الحمدلة والصلاة على رسول الله، ثم انتقل في السطر الثاني إلى توضيح سبب انتقال ملكية كتب خزانة الحسن بن سعيد بعد وفاته الى زوجته السيدة عائشة بنت سيدي محمد، ثم انتقال الملكية إلى المشتري، وكل ذلك بسب الديون المترتبة عليهم سواء كان الحسن أو أبناؤه أو زوجته، كما أوضحت الوثيقة وجود صنفين من الكتب داخل الخزانة، واحدة محبّسة (موقوفة)، والأخرى مكتسبة إما نسخا أو شراء أو تأليفا.

وعرّج بعد ذلك كاتب العقد إلى تحديد الطرف الثاني في العقد، والذي يظهر من خلال صيغة الكتابة بأنه كان فقيها عالما ينتمي إلى العائلة البكرية ذاتِها، ومما جاء فيه قولُه"... فاشترى منها على بركة الله تعالى وحسن توفيقه الجميل البركة الفقيه العلامة سيد أحمد نجل البركة سيد البكري...".

ثم بعد تحديد الأطراف والأسباب الدافعة إلى ذلك، جاءت الوثيقة بأسماء الكتب المبتاعة وثمن كل كتاب، سواء كان السعر يشمل مجموعة من المخطوطات في سفر أو بدون سفر. وتنتهي الوثيقة بتحديد الثمن الكلي للكتب وتاريخ تحرير الوثيقة، والتاريخ يوافق أوائل جمادى الأولى سنة 1300هـ الموافق مارس 1883م، وجاء تذييل الوثيقة ليؤكد ما جاء في أولها بأن محرر الوثيقة هو العلامة البكري بن عبد الرحمن التنلاني، وقد وردتْ الإشارة إليه في المقدمة بالقول "...لما صيرت كتب خزانة الفقيه العلامة خالنا وشيخنا سيدي محمد الحسن نجل البركة المرحوم جدنا سيدي سعيد..."

وجاء في نهايتها "...وكتب مذيلا اسمه أعلاه محمد البكري بن محمد عبد الرحمن كان الله له".

التعريف بصاحب الخزانة الحسن بن سعيد البكري (ت 1286هـ/1869م):

ولد الحسن بن سعيد البكري بالزاوية البكرية سنة 1210هـ/1796م[9]، درس بحاضرة العلم آنذاك ملوكة على يد الشيخ عبد العزيز البلبالي، وحصل منه على إجازة في جميع الفنون التي أخذها عنه[10].

بعد رجوعه إلى الزاوية البكرية جلس للتدريس والإفتاء، حيث كان له مجلس علم تخرج على يده شيوخ وفقهاء، منهم: ابنه الشيخ محمد، والقاضي الحاج محمد بن عبد الرحمان، والشيخ البكري بن عبد الرحمن التنلاني[11]، وكان يقسم السنة القمرية إلى خمسة أزمنة، فيجلس ثلاثة أشهر للتدريس بالزاوية، ثم ينتقل ثلاثة أشهر أخرى للتدريس في بأقبلي في تيدكلت، ثم ينتقل للتدريس ثلاثة أشهر أخرى بأوقروت من إقليم قورارة، ويمكث شهرين بالزاوية لخدمة بساتينها، ويخصّص شهر رمضان للإقامة عند شيخه عبد العزيز البلبالي بملوكة، وقد كان كثير التنقل بين بلاد التكرور وتوات للتدريس والإفتاء[12]، وتذكر المصادر البكرية كثرة نسخه للكتب ليزود بها خزانته.

له عدة مؤلفات وهي:

- غاية المنتظر وفتح الجليل في أصول بعض فروع مختصر خليل[13].
- مخطوط في تراجم العائلة البكرية[14].
- قصائد متعددة الأغراض، منها قصيدة يمدح فيها شيخه عبد العزيز البلبالي يقول في مطلعها:

ولما غدت سلمى تُرشّق بالقنا فؤاديَ لم أسلو بهند وزينب

توفى الشيخ الحسن بن سعيد البكري سنة 1286هـ/1869م[15] بالزاوية البكرية، وقد رثاه تلميذه وابن أخته الشيخ البكري بن عبد الرحمن بقصيدة جاء في أبيات منها:

ما لِسُعدى رمتْ فؤادي بِلحظٍ وكَوَتني بنارِ هَجرٍ جهاراً

دراسة الوثيقة:

قبل الحديث عن الكتب المباعة من خزانة الحسن بن سعيد البكري، يجب التوضيح من خلال الوثيقة بأن الخزانة كانت تضم كتبا محبسة، لا يمكن للورثة بيعها ولا التصرف بها، لأن شرط المحبس سيد البكري بن عبد الكريم حسب الوثيقة أنْ تكون الكتب تحت تصرف من قرأ من حفدته، وبالرجوع إلى المصادر البكرية نجد في الكواكب البرية ما يسند هذا الكلام "...وكل الكتب حبس مبتل على الأولاد والأحفاد من الذكور حتى يرث الله الأرض، لكل الانتفاع بمكانهم، لا يمنع منها منتفع ولا يمكّن مبتدع..."[16]. لكن نظرا لعدم التفاهم بين حفدة الشيخ حول شرط المحبس، مع علمهم بأحقية الحسن ين سعيد بالتصرف بها، كونه في هذه المرحلة أعلم حفدة سيد البكري. ويبقى السؤال المطروح أين ذهبت الكتب المحبسة بعد وفاة الحسن بن سعيد؟ وما مصير الكتب التي اشتراها العلامة أحمد بن البكري؟ خاصة إذا علمنا بأن هذا الأخير توفي بمتليلي، وأن الذي تسلم الكتب نيابة عنه كان والده البكري.

ومن خلال تسليط الضوء على قائمة الكتب التي بين أيدينا نلاحظ بأن الكتب لم تخرج عن المجال الديني واللغوي من فقه وحديث وتفسير وتصوف ومديح وعروض، أما من حيث الانتماء الجغرافي لأصحابها فنجد المؤلفات التواتية اقتصرت

على أربعة منها، ثلاثة في النوازل والقضاء (نوازل عبد الكريم بن أمْحمد ونوازل الزجلاوي ومعونة الغريم للجنتوري) وواحد في اللغة لابن أب المزمري، ومعظم المؤلفات الأخرى تنتمي إما للمغرب بصفة عامة وفاس بصفة خاصة، وإما للاندلس، والبعض منها للمشرق. أما من حيث المرجعيات الفقهية والمذهبية فهي مالكية، ما عدا كتاب في الأصول لابن السُبكي "جمع الجوامع" الشافعي، وكتاب الأشموني في اللغة، وكتاب آخر لابن حجر في شرح الهمزية، كما نجد ضمن الكتب موضوعات تختص بعلم التنجيم، وهو في الحقيقة على علاقة بعلم الفلك، الذي يهتم بحركة الكواكب والشمس والخسوف والكسوف.

تعتبر عملية تسفير المخطوط غاية في الأهمية، إذ أن تسفير الكتب يحفظها من الأضرار التي يمكن أن تلحق بها عبر الزمن، كما أن الغلاف يحفظ لنا معلومات عن تاريخ ومكان صناعته، غير أن الوثيقة أشارت فقط الى كون المخطوط بسفر أو لا، وكونه يضم عنوانا واحدا أو عنوانين، وبخصوص قيمة المخطوط المادية وعلاقتها بالسفر فهي غير واضحة، إذ نجد المواق في سفر بثمانية مثاقيل، وحاشية بن غازي على خليل بسفر بمثقال واحد، وهذا الأمر يدفع بنا إلى القول أن تحديد ثمن الكتب يرجع أساسا إلى عاملين اثنين: الأمر الأول يتعلق بحجم المخطوط وعدد صفحاته، والأمر الثاني يتعلق بالقيمة العلمية للكتب.

قائمة الكتب المباعة:

الرقم	اسم الكتاب كما ورد في الوثيقة	اسم المؤلف	الثمن
.1	حاشية سيدي محمد بناني	محمد بن الحسن بناني الفاسي (ت1163هـ)	8 مثاقيل

.2	نوازل الزجلاوي[17]	مَحمد العالم بن أحمد الزجلاوي التواتي (كان حياً سنة 1174هـ)	
.3	جميع النصف الثاني من الحطاب	أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المغربي الشهير بالحطاب (ت954هـ)	8 مثاقيل
.4	ابن النجيب[18]	/	5مثاقيل
.5	نوازل بن هلال	إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الفلالي السجلماسي (ت903هـ)	
.6	بعض من نوازل سيدي عبد الكريم[19]	عبد الكريم بن امحمد التمنطيطي الأمريني(ت104هـ)	
.7	حاشية بن غازي	محمد بن أحمد بن محمد بن علي بن غازي المكناسي(919هـ)	1 مثقال
.8	حاشية بن مجلة		4مثاقيل
.9	المواق	محمد بن يوسف العبدري الغرناطي المالكي المعروف بالمواق (ت897هـ)	8مثاقيل
.10	معونة الغريم للجنتوري[20]	عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري التواتي	1.5مثقال
.11	نصف بن الناظم على بن عاصم	ابن الناظم أبي يحي محمد بن عاصم الأندلسي المالكي (ت 857هـ)	
.12	نوازل حلولو	أحمد بن عبد الرحمن الزليطني القيرواني المعروف بحلولو (ت898هـ)	1.5مثقال
.13	حكم ابن عطاء الله	ابن عطاء الله السكندري (ت709هـ)	
.14	ميارة الصغير على ابن عاصم	محمد بن أحمد ميارة الفاسي المالكي (ت1072هـ)	1مثقال

.15	المقصور والممدود[21]	محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي البصري (ت321هـ)	2.5مثقال
.16	رحلة ضيف الله[22]	ضيف الله بن محمد بن أب المزمري التواتي(1128هـ)	
.17	شيء من نسب الشرفاء	/	
.18	شرح الخزرجية	لها عدة شراح	
.19	اختصار زهر الانيق	ابن غلاب عبد السلام بن غالب القيرواني المالكي(ت646هـ)	
.20	شرح التلمسانية على الفرائض[23]	لها عدة شراح	1.5مثقال
.21	شرح القلصادي	علي بن محمد بن علي القلصادي الغرناطي (ت891هـ)	
.22	الدر النثير	عبد الواحد بن محمد بن علي ابن أبي السداد المالقي الأندلسي(705هـ)	2.5 مثقال
.23	شرح الحزب الكبير	(الشاذلي-عبد القادر الجيلاني)	
.24	بعض من النوازل		
.25	بعض من العميري	أبو القاسم بن سعيد العَمِيري الفاسي (ت1178هـ)	
.26	شواهد الأجرومية	علي بن محمد بن محمد بن خلف بن جبريل المنوفي المالكي 939هـ	1 مثقال
.27	معين الحكام	وجود عدد من المؤلفات بهذا العنوان	

.28	المباحث الأصلية ومعها أوراق داخلون في الاشتراء	أحمد بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بابن البنَّا السرقسطي(ت721هـ)	1مثقال
.29	المنجور	أحمد بن علي بن عبد اللّه الفاسي المعروف بالمنجور (ت995هـ)	3مثاقيل
.30	تكملة المنجور	محمد بن أحمد ميارة الفاسي (ت1072هـ)	
.31	قواعد المذهب	علي بن قاسم بن محمد التُّجيبي، المعروف بالزقاق الفاسي (ت912 هـ)	
.32	شرح ابن أب[24] على الهمزية[25]	محمد بن أب المزمري التواتي (ت1160هـ)	
.33	المنهاج الفائق	أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي المالكي(ت914هـ)	2مثقال
.34	بعض من الديباج[26]	إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت799هـ)	
.35	ألفية بن مالك	محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (ت672هـ)	1.5 مثقال
.36	بن سعيد	/	
.37	العمليات للفاسي وطرر عليها وأوراق	عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي (ت1096هـ)	
.38	الشيخ داود على الرسالة	داود بن علي بن محمد الغلطاوي الأزهري المالكي (ت902هـ)	1 مثقال
.39	تحفة الحطاب في قواعد الاعراب[27]	/	

.40	بعض من الأشموني	علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأُشْمُوني المصري الشافعي (ت900هـ)	
.41	بن الجلاب	عبيد الله بن الحسين بن الحسن أبو القاسم ابن الجَلَّاب المالكي (ت 378هـ)	1 مثقال
.42	شرحان على لامية الجمل[28]	/	
.43	شرح بن حجر على الهمزية	أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي الشافعي(ت974هـ)	1 مثقال
.44	الازهري على البردة	خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري المعروف بالوقاد(ت904هـ)	
.45	شرح على الآجرومية	/	
.46	النصف الثاني من جواهر الحسان	عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي الجزائري	3مثاقيل
.47	ثلاثة أجزاء من البيان والتحصيل	محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي (ت520هـ)	10مثاقيل
.48	حاشية ابن ناجي على الرسالة	قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (837هـ)	1.5مثقال
.49	النصف الثاني من جواهر بن شاس	أبو محمد جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس (616هـ)	3 مثاقيل
.50	شرح دلائل الخيرات والحاشية التي على دلائل الخيرات لسيدي عبد الرحمن الفاسي	عبد الرحمن بن أبي عبد الله الفاسي (1036هـ)	1.5 مثقال
.51	جمع الجوامع لابن السُبكي	عبد الوهاب بن علي السبكي تاج الدين	3مثاقيل

		الشافعي (ت771هـ)	
.52	شرح التفتزاني	سعد الدين التفتزاني (ت 792هـ)	
.53	شرح السلم	سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري (ت1041هـ)	
.54	الجامع الصغير للسيوطي	عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين *السيوطي* (ت911هـ)	2 مثقال
.55	شرح مقصورة بن دريد	محمد بن أحمد بن هشام اللخمي (ت 577هـ)	1.5 مثقال
.56	رسائل بن الخطيب	لسان الدين بن الخطيب(ت776هـ)	
.57	شرح تصلية مولاي عبد السلام بن مشيش	لها عدة شراح	
.58	شيئاً من علوم التنجيم	/	
.59	شرح على الدرر اللوامع لابن بري	علي بن محمد بن علي بن محمد بن الحسين، الشهير(ابن بَرّي)(ت730هـ)	1 مثقال

تحفظ لنا الوثيقة في الشق الاجتماعي العديد من المعلومات، من بينها وجود زوجة واحدة حرة ملك يمين شيخ الزاوية الحسن بن سعيد بن عبد الكريم ، وهو ما استنتجته من قوله "...زوجة حياته الحرة الجليلة..." وزوجة شيخ الزاوية المسماة عائشة بنت أمحمد بن عبد الكريم بن محمد البكري هي وحيدة أبيها، تلتقي مع زوجه(ابن عمها) في جدهما عبد الكريم.

ويمكن ملاحظة أيضا المكانة التي وصلت إليها المرأة والحقوق المكتسبة داخل المجتمع التواتي بصفة عامة وداخل الزاويا بصفة خاصة، فمن خلال الوثيقة محل الدراسة نجد إشارات واضحة لحقوق المرأة التواتية، على غرار حقها في تملّك الأموال –عينا ونقدا – والتصرف فيها بالبيع والشراء والإقراض والاقتراض وهذا ما نلمسه في قوله "...وصارت الكتب بذلك التصيير المذكور ملكا لها" وأيضا"... فظهر الآن للمالكة المذكورة أن تبيع منها ما تستوفي به بعض الديون بذمة نجلها المذكور وبذمتها..."، وفي قوله"...فاشترى منها على بركة الله تعالى..." وأيضا في"...فيما قضت عنه من الديون"..." وفي قوله"...تولت البائعة قبض الثمن..."، ومن صور التضامن العائلى الوارد في العقد بين الزوجة وزوجها من جهة وبين الأم وابنها من جهة ثانية هو محاولة الزوجة –والأم في نفس الوقت– التخفيف من الديون المترتبة على الزوج أول الأمر، ثم على الابن بعد وفاة الزوج، ومما يعضد هذا ما جاء في العقد "...فيما قضت عنه[الزوج] من الديون لبعض غرمائه..." أما ما كان بخصوص الابن فقد ورد في نص الوثيقة"...ما تستوفي به بعض الديون بذمة نجلها المذكور، وبذمتها...".

أما الأهمية التاريخية والعلمية للوثيقة تظهر من خلال تحديد بعض الشخصيات العلمية التي يصفها كاتب العقد بصيغة "الفقيه والعلامة"، وهو ما وقفنا عليه في موضعين الأول: عندما ذكر خاله بقوله"...الفقيه العلامة خالنا وشيخنا سيدي محمد الحسن نجل البركة المرحوم جدنا سيدي سعيد..." ، والموضع الثاني: في تحديد طرف الثاني للعقد (المشتري) بقوله"...البركة الفقيه العلامة سيد احمد نجل البركة سيد البكري..."، وقد ترجمنا للأول في ذكر صاحب الخزانة، أما الثاني: فهو الشيخ أحمد بن البكري بن المبروك بن محمد الصالح بن محمد البكري، تتلمذ بالزاوية البكرية على يد ابن عمه الشيخ الحسن بن سعيد إلى جانب سيد البكري بن عبد الرحمن، انتقل إلى

متليلي بنواحي غرداية وأسس هناك زاوية جلس بها للتدريس. وما اشتراه من الكتب بواسطة والده وهو في الغربة إلا دليل على نبوغه العلمي، وفي آخر عمره أصيب بمرض أقعده الفراش، وأثناء مرضه هذا أرسل لوالده البكري رسالة يصف حاله مع المرض، توفي في بداية القرن 20م[29].

ومن الشخصيات البارزة في الوثيقة الشيخ البكري بن عبد الرحمن التنلاني(ت1339هـ) –محرر الوثيقة– هو ابن أخت شيخ الزاوية، ولد وعاش بالزاوية في بيئة علمية صالحة حيث تعلم على يد والده ثم عند خاله الشيخ الحسن بن سعيد، الذي كان يعد أفقه شيوخ العائلة البكرية في تلك الفترة، حيث درس عنده لمدة سنتين، ثم انتقل بعدها إلى بلدة كالي30 بتيميمون عند الشيخ مولاي عبد الحاكم بن عبد العالي بن محمد ولازمه إلى غاية وفاته، جلس الشيخ البكري بن عبد الرحمن للتدريس بالزاوية البكرية خلفا لخاله الشيخ الحسن بن سعيد كما خلف الشيخ البكري بن عبد الرحمن تراثاً متنوعاً وضخماً من الكتابات المتعددة الأغراض، جمعت في ديوان من أربعة أجزاء، يعود له الفضل في إعادة نسخ عديد الوثائق الخاصة بالزاوية[31].

أما قضية الديون المترتبة على شيخ الزاوية ثم على ابنه متولي الأمر من بعده، فمن خلال الوثائق المحلية التي اطلعت عليها، يمكن حصر أسبابها في الأعباء الاجتماعية التي كان يتحملها متولي مشيخة الزاوية، وفي ظل تراجع مداخيل الزاوية من أوقافها، نتيجة الظروف الطبيعية أو انهيار الفقارة، أو بسب أمواج الجراد المتعاقبة، مع وجود سبب مباشر تمثل في هجمات الأعراب (العرب البدو الرحل) على الزاوية والاستيلاء على مدخراتها، فشهدت ضائقة مالية خانقة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وكل هذا نقف عليه في مخطوط الكوكب الدري للشيخ سيد البكري بن عبد الرحمن[32] يحدد بعض من هذه الأسباب" قوله:"... وقد صدق الولي

الصالح سيدي عبد القادر المذكور[شيخ زاوية سيدي عبد القادر بفنوغيل] فيما يلحق أهل الزوايا من العموم التواتية فإن أهل الأصقاع سوى توات من البوادي والحواضر كانوا يكرمون أهل الزوايا ويعظمون حرمتهم ويدافعون عنهم ولو بالنفس والمال ويجعلون لهم الضرائب في أموالهم ويهادونهم بما قدروا عليه، وقصدهم من الزوايا البركة وأما عموم توات فإنهم لا يدافعون عن زواياهم...فترى أنوفهم شامخة على المرابطين، يكلفونهم في الإطعام بما لا يطيقون عليه، ومنهم من يضرب أهل الزوايا ومنهم من ينهبهم ولا يأتون الزواية إلا بسبعة أمعاء مفتوحة...حتى أوقفوها على التلاشي..." .

وهذه النظرة دليل واضح على الأسباب التي ساهمت بقسط وافر في تراجع مداخيل الزاوية البكرية، مع بقاء نفس الأعباء الاجتماعية(إطعام الطعام والصلح بين المتخاصمين ومساعدة المحتاجين) التي يتحملها شيخ الزاوية، ومما زاد الطين بلة ما شهدته توات من هجمات الأعراب، فلم تسلم منه الزاوية البكرية كحال بقية زوايا الصقع التواتي، ففي سنة 1275هـ/1859م أغار الأعراب على زاوية تنلان[33] وأخذوا 22 نفساً، منهم عبيد وموالي، وانتقلوا منها إلى الزاوية البكرية فأخذوا ما يمكن حمله من أموال وطعام[34]. ويمكن اعتبار هذه الأسباب الدافع المباشر لشيخ الزاوية من أجل الاقتراض لتلبية جزء من الأعباء الاجتماعية للزاوية.

وفي الجانب الاقتصادي جاءت الوثيقة موضع الدراسة لتحدد لنا نمط المعاملات التجارية الخاصة بالبيع والشراء، حيث ومن خلال دراسة هذا العقد يتضح بأن المثقال[35] كان العمل جاريا به خلال هذه المرحلة، لكن يبقى السؤال المطروح ما هي قيمة المثقال[36] ؟ وما العملات الأخرى التي كانت إلى جانبه بتوات؟ ومن خلال الإطلاع على بعض النوازل والتقييد المحلية نجد بأن المثقال الذهبي والفضي بتوات كان عملة متعارفا عليها، تتم به معظم المعاملات، حيث جاء في مراسلة بعث بها تاجر

تواتي إلى آخر من تافيلالت جاء فيها"...فإن سألت عن أرضنا وما كان فيها غاليا أو رخيصا، فإن سألت عن الخديم رخيصا، والذهب مثقالين [الفضة] وأربعة عشرة موزونة للمثقال[الذهبي]..."[37] ، وإلى جانب المثقال كانت هناك عملات أخرى يجري التعامل بها في توات وردت في كتب النوازل منها: الدرهم والفلس والريال والموزونة[38] ، وفي شرح الجنتوري لمعونة الغريم ذكر نقود نحاسية كان يتم التعامل بها في منطقة قورارة دون سواها من البلاد التواتية تسمى بـ"الفرافر"، ومما جاء في قوله:"...وهو كل في تجورارين، وهم المبتلون بهذه الفرافر، وأما أهل توات فهم براء من ذلك، والفرافر دراهم صغار مغشوشة بنحاس والموزونة الاسماعلية طيبة..."[39] .

وفي المغرب أطلق المثقال والدينار معا على القطعة النقدية الذهبية، لكن منذ الإصلاح النقدي سنة 1766م الذي قام به السلطان المغربي محمد بن عبد الله، تم ضبط المصطلحين حيث أطلق الدينار على القطعة الذهبية والمثقال على القطعة الفضية من عشرة دراهم. والمثقال الفضي يساوي 10 أوقية وكل أوقية تساوي أربع موزونات، وهذا هو ما كان متعارف عليه في المغرب خلال القرن 19م[40].

ومن خلال التعاملات المالية المذكورة آنفا يمكن استنتاج بأن أسعار الكتب حددت بالمثقال الفضي، سكة الوقت كما جاء في نهاية الوثيقة ما نصه"...دراهم سكة تاريخه..."، وعليه يمكن اعتبار أن كل مثقال ذهبي يساوي مثقالين و14 موزونة بناء على الوثيقة السابقة، وأن مجموع ثمن الكتب وصل إلى 84.5 مثقال، وبعملية حسابية بسيطة معتمدين على المعطيات السابقة يمكن تحديد الثمن الكلي للكتب بالمثقال الذهبي بـ 36 مثقالا، وهو ما يعادل 153غ من الذهب، وحسب عملية صرف العملات حاليا فالمبلغ الذي حدد للكتب يبين مدى القيمة والأهمية المالية للكتب آنذاك من حيث اعتبارها سلعة ثمين توظف في المعاملات التجارية والمالية.

الخاتمة:

من خلال دراسة هذه الوثيقة الخاصة ببيع كتب خزانة الزاوية البكرية، يتضح لنا بأن خزانة البكرية تلاشت ليس بفعل العوامل الطبيعية فقط، وإنما بسبب توزيع مخطوطاتها بين فروع العائلة البكرية، إضافة إلى استعمالها كسلعة ذات قيمة مادية لتسديد الديون المترتبة على عاتق شيخ الزاوية، أما من حيث الأهمية العلمية التاريخية للوثيقة فقد حفظت لنا أسماء شخصيات علمية ساهمت في الحركة العلمية خارج توات لازالت مغمورة كالعلامة أحمد بن سيد البكري، وحفظت لنا أيضا عناوين الكتب والمستوى العلمي لكل من البائع والمشتري، وإذا أتينا إلى الشق الاجتماعي فهو الأخر نلمسه في الوثيقة من خلال معاناة شيخ الزاوية من الأعباء الاجتماعية للزاوية الأمر الذي دفع به إلى الاقتراض وتسوية تلك الديون ببيع كتبه لعدم وجود سلعة ذات قيمة يمتلكها يمكن أن تحل محل الكتب، ومن القيم الاجتماعية التي تعكسها الوثيقة ظاهرة التكافل الاجتماعي داخل الأسرة من حيث تكفل الزوجة بدفع ديون زوجها وابنها معاً، وجعل أموالها صندوقا ماليا احتياطيا للزوج يستعمله وقت الحاجة، وبخصوص الأهمية الاقتصادية فإن الوثيقة رصدت لنا أسعار الكتب والعملة المستعملة في البيع والشراء بتوات.

الملحق رقم:01

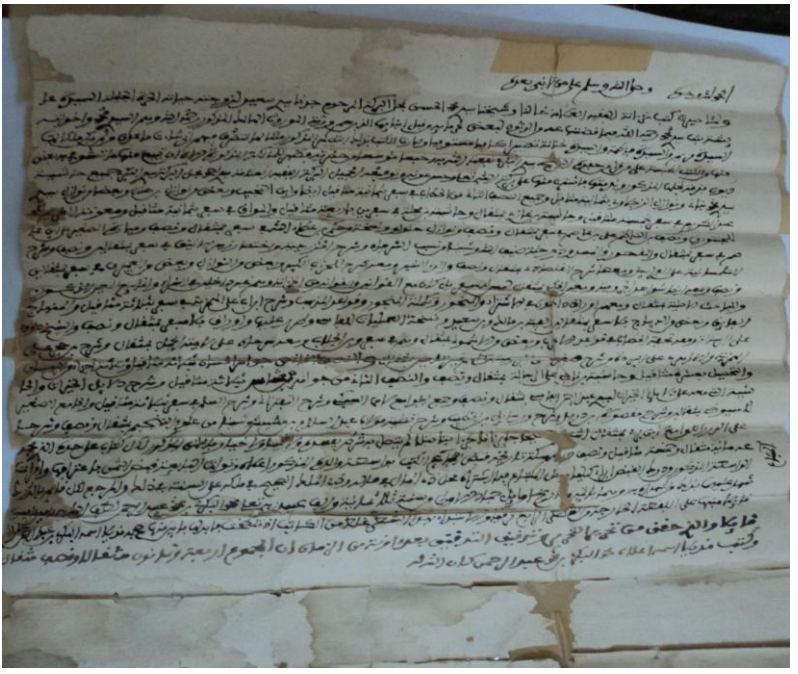

وثيقة (عقد) بيع كتب خزانة الحسن بن سعيد البكري

الهوامش:

[1]تأسست الزاوية البكرية سنة 1112هـ علي يد مؤسسها سيد البكري بن عبد الكريم(ت1133هـ) بن مَحمد التمنطيطي بتمنطيط، وبعدما أتم عقد الشراء والتحبيس أمر ابنه محمد ببناء الزاوية في الارض المذكورة والسكن بها وإطعام الطعام بها في سبيل الله وذلك سنة 1117هـ. للمزيد حول الزاوية أنظر: عبد الله بابا: الزاوية البكرية ودورها الثقافي والاجتماعي باقليم توات 1112-1421هـ/1700م-2000م، جامعة أدرار، الجزائر: 2013، معظم الصفحات.

[2] هو سيد البكري بن عبد الكريم بن مَحمد الأمريني التمنطيطي ولد بتمنطيط في تاريخ12 رمضان 1042هـ، وذلك بعد وفاة والده بأربعين يوما، أخذ العلم عن محمد بن علي النحوي الوجروتي والشيخ بن معروف الهبلاوي، والشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري وأخذ طريقة القوم في التصوف عن الشيخ محمد بن عمر البداوي، تولى قضاء الجماعة التواتية 1092هـ ، وجلس للتدريس والافتاء بتمنطيط، كما أسس زوايا عديدة داخل توات وخارجها، في آخر عهده مال إلى التصوف، توفي سنة1133هـ. للمزيد انظر: محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق :الكواكب البرية في المناقب البكرية ،مخطوط(لم يحقق) ، خزانة أولاد القاضي، تمنطيط ، ادرار، الجزائر: ص24 .وينظر أيضا لنفس المؤلف : جوهرة المعاني فيما ثبت لدي من علماء الألف الثاني(لم يحقق)، خزانة أولاد القاضي،تمنطيط، أدرار، الجزائر: ص11.وينظر كذلك :محمد العالم بكراوي: الدرة البهية في الشجرة البكرية ، مخطوط(لم يحقق)، الخزانة البكرية، تمنطيط، ادرار، الجزائر: ص50 وما بعدها.

[3] محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر نفسه، ص27.

[4] ابن بابا حيدة محمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم: القول البسيط في أخبار تمنطيط، تح: فرج محمود فرج، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1977، ص17.

[5] مقابلة شخصية مع الشيخ الحاج عبد الرحمن بكراوي، بتمنطيط، يوم الأربعاء 2016/09/21، على الساعة 17مساء.

[6] محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر السابق، ص27.

[7] يتميز هذا المصحف بهندسة إنشائية بديعة، كل آية مشكولة بشكل مثلث، وكل خمس آيات مشكولة بشكل الهاء الواقفة، وكل عشر آيات مشكولة بشكل خاتم مدور، وقد تمّ توظيف ألوان حمراء وخضراء وصفراء تسر الناظرين، وقد أحضره الشيخ عمرو بن محمد معه من مدينة فاس إلى توات، وعندما سافر إلى بلاد الساحل خلّفه عند ولديه ميمون والتهامي بتمنطيط. انظر: محمد بن عبد الكريم: المكان نفسه.

[8] المكان نفسه.

[9] تقييد بيد الحاج عبد الله بكراوي، قصر غوزي، أدرار.

[10] محمد العالم بكراوي: ترجمة وجيزة لبعض علماء إقليم توات، خزانة محمد العالم، المنيعة، الجزائر، ص48.

[11] المكان نفسه.

[12] فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر: 1977 ، ص105.

[13] توجد نسخة منه بيد الحاج عبد الله بكراوي، قصر غوزي، أدرار.

[14] توجد نسخة منه بخزانة سيد أحمد ديدي البكري بتمنطيط.

[15] محمد العالم بكراوي: الدرة البهية، المصدر السابق، ص113. غير أن تقييد بيد الحاج عبد الله بكراوي يرجع وفاته إلى 1292هـ/1875م.

[16] محمد بن عبد الكريم: الكواكب البرية، المصدر السابق، ص27.

[17] هو الشيخ مَحمد العالم بن أحمد بن محمد بن أبي بكر الزجلاوي من آل علي بن حنيني (كان حياً سنة1174هـ)، أخذ العلم عن والده وعن شيوخ عدة خارج توات منهم: أحمد بن ناصر الدرعي، محمد بوكلخ التلمساني، والجيلالي بن احميد المزغراني، له تعليقات على شرح السنهوري على المختصر، وأجوبته المعروفة بـ "نوازل الزجلاوي" وهي محققة في إطار رسالة دكتوراه جامعة الأمير بقسنطينة، من طرف الدكتور محمد جرادي. انظر ترجمته: مَحمد العالم الزجلوي: نوازل الزجلوي: تح ودرا: محمد جرادي، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر: 2010-2011م، ص ص78-92.

[18] لم أعثر على ترجمة لابن النجيب لكن عثرت على تحقيق على أعماله بعنوان: تحفة اللبيب في جمع الطرر المعلقة على شرح ابن النجيب، تحقيق الحاج ابن عبد الرحمان البلبالي

[19] هو عبد الكريم بن أمحمد بن أبي محمد بن أحمد بن ميمون بن عمرو الأمريني. ولد بتمنطيط سنة 994هـ وقيل سنة 1002هـ، لقبه الرحالة أبو سالم العياشي في رحلته بـ "عالم توات، له تآليف عديدة، توفي سنة 1042هـ. أنظر ترجمته: محمد بن عبد الكريم: جوهرة المعاني، المصدر السابق، ص22.

[20] هو أبو زيد عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري، أخذ العلم على يد الشيخ عبد العالي ثم على يد الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني، من تلامذته عبد الرحمان بن عمر التنلاني. كان يقول لا نفتي بين الخصماء إذا حضروا لدي إلا بالنص الصريح، من مؤلفاته نوازل الجنتوري ومعونة الغريم في بعض أحكام قضاء الدَّيْن، توجه لأرض الحجاز لأداء فريضة الحج سنة 1150هـ، توفي يوم 05جمادى الأولى سنة 1160هـ/1747م . عبد الرحمن بن عمر التواتي: فهرسة عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي، دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بعثمان، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الحديث، كلية الآداب واللغات والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، الجزائر:2009/2008، ص ص48-49.

[21] وضع عليها ابن أب المزمري التواتي شرحاً.

[22] هو ضيف الله بن محمد بن أب المزمري التواتي الجزائري، ولد سنة 1128هـ/1716م، أخذ العلم عن والده العالم المشهور، خلف عدة مؤلفات منها: رحلتي لزيارة قبر الوالد، وقد وضع الدكتور أحمد جعفري تحقيقا ودراسة لهذه الرحلة، كما له قصائد شعرية عدة، توفي سنة أواخر القرن 12هـ. انظر ترجمته: عبدالله مقلاتي ومبارك جعفري: معجم أعلام توات، دار السبيل، الجزائر:2013، ص173.

[23] وضع عليها شرحا محمد بن مَحمد العالم الزجلوي المتوفى سنة 1212هـ.

[24] محمد بن أُب المزمري التواتي المتوفى 1160هـ /1747م، كان رحمه الله فقيها، أديبا، نحوياَ، لغوياً، تصريفيًا، عروضيًا، أخذ عن علماء عدة داخل توات وخارجها، له مؤلفات عدة منها: نظم على الأجرومية، وشرح على لامية ابن المجراد في الجمل، انظر ترجمته: عبد الرحمن بن عمر: المصدر السابق ، ص ص 136-141.

[25] وضع لها الطالب أمحمد مزايني تحقيقا في إطار نيل شهادة الماجستير من جامعة الشلف بالجزائر سنة 2008/2007م.

[26] يمكن أن يقصد بالديباج هنا كتاب أحمد بابا التمبكتي(ت1036هـ) نيل الإبتهاج بتطريز الديباج.

[27] لم أعثر على المعلومات الخاصة بالكتاب.

[28] وضع كل من عبد الكريم بن مَحمد التواتي (ت1042هـ) وابن أب المزمري التواتي شرحا للامية..

[29] عبد الله بن عبد السلام بكراوي: مقابلة شفهية، بالزاوية البكرية، يوم الأربعاء 2016/09/22، على الساعة 17 مساء.

[30] كالي إحدى قرى مقاطعة أولاد سعيد بتيميمون وتبعد عنها ب 30 كلم ناحية الشمال.

[31] عبد الله بكراوي: المصدر السابق.

[32] البكري بن عبد الرحمن التنلاني : الكوكب الدري في مناقب سيدي محمد بن البكري، الخزانة البكرية، تمنطيط، ادرار، الجزائر، ص02.

[33] تأسست زاوية تنلان على يد الشيخ أحمد بن يوسف سنة 1058هـ/1648م، وسماها "رزق الله الواسع والنور الساطع" . انظر: محمد باي بلعالم: الرحلة العلية إلى منطقة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج1، ص33.

[34] محمد بن عبد الكريم: تقييد حول تاريخ توات وتمنطيط،مخطوط(لم يحقق)، خزانة أولاد القاضي، تمنطيط، أدرار، الجزائر، ص ص7-8.

[35] المثقال كما عرفه المقريزي بقوله: "...والمثقال: اسم لما له ثقل كبر، أو صغر، وغلب عرفه على الصغير، وصار في عرف الناس اسماً للدينار، والله أعلم". أنظر : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: كتاب الأوزان والأكيال الشرعية، سلطان بن هليل المسمار، دار البشائر، بيروت، لبنان: 2007، ص62.

[36] وجاء في الغنية أن المثقال عند أهل توات زنة 72 حبة شعير لوزن الذهب، ويقابل ثمانية عشر قيراط . انظر محمد بن عبد العزيز البلبالي: نوازل الغنية البلبالية (غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل)، جمع عبد العزيز البلبالي . مخطوط بخزانة سيد أحمد ديدي ، تمنطيط ، أدرار، ص68.

[37] وثيقة بيد الإمام أحمد بن محمد بن حسان، عريان الرأس، تسابيت، أدرار ، الجزائر

[38] محمد جرادي: الحالة الاقتصادية لإقليم توات في القرنين 11 و12 الهجريين من خلال كتب النوازل، أعمال الملتقى الوطني الأول المشترك بين جامعتي أدرار وتيارت ،14-15 ابريل2009، ص366.

[39] عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري: شرح معونة الغريم، مخطوط بخزانة الحاج أحمد الشيخ، انزجمير، ادرار الجزائر، ص13.

[40] عمر أفا: النقود المغربية في القرن الثامن عشر أنظمتها وأوزانها، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب: 1993، ص170.